ذكريات عن شوقي وحافظ

بقلم السيد محمد الغنيمي التفتازاني

أتراني حين أذكر لك بعض ما يجهله الناس عن علمين من أعلام الأمة أرجع إلى غير الذكريات، «والذكريات – كما يقول شوقي – للمرء عمر ثان» ؟ وعلى هذا القياس أعتقد أن عمري طويل إذا وفقني الله إلى تدوين ذكرياتي عمن عرفت من الناس – وكثير ما هم – في مشارق الأرض ومغاربها؛ ثم ليدن أجلي بعد ذلك ؛ ولكل أجل كتاب طال أم قصر.

شوقي

عرفت «شوقي» عرفان الجار الوثيق، ثم عرفان الشاعر المفرد ، ثم عرفان الرجل العظيم ، ولشوقي من هذه الصفات نواح يجهلها الناس ، فما كل من عرف «شوقي» كان يسكن (خط الحنفي) كما أسكنه ، وفي ظلال قبة شمس الدين الحنفي رضي الله عنه ، ولد شوقي ، ونشأ شوقي ، وتزوج شوقي ، بل هو نفحة من نفحات السلطان أبي محمود ، يعرفها من عرف شيئاً من أسرار إمام أهل الحقيقة والشهود .

ألفنا منذ نشأنا ، أن نشهد (الحضرة) التي يقيمها الإخوان المتصوفة في ساحة السلطان فجر كل يوم ؛ وقلما انقطعنا عن شهود هذه الحضرة حتى في أشد أيام الشتاء قسوة ، فإذا انبلج الصبح وأدينا الفريضة وساهمنا في مجلس الذكر وتلونا حزب البر لأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، زرنا ضريح السلطان الحنفي ، وانصرفنا بعد ذلك إلى بيوتنا لنتهيأ بعد تناول الأفطار للعمل ، كل لما يسر له ؛ كذلك كانت عادة غالبية أهل خط السلطان الحنفي من شباب ورجال ، ولا تزال عادتهم إلى الآن ، ولو أن الأيام تناولتها بالانتقاص تبعاً لتقلباتها .

هذا شوقي (باشا) كما كنا نسميه ، هذا شاعر الأمير ، هذا الروح الملهم يطوف بضريح السلطان الحنفي يسأل الله المغفرة ، والستر في الدنيا والآخرة ، ويدعو لأهله وولده ، ثم يوزع الصدقة في غير منّ ولا أذى على اللاجئين إلى ساحة السلطان من الفقراء والمعوزين ، وكم هو حريص أمير الشعراء على هذا النوع من الصدقة والأسلوب من النسك رغم انتزاع كرمة ابن هاني لهذا الكنز النفيس من قلب القاهرة حيث تقع دارهم الأولى إلى ضاحية المطرية ثم إلى ضاحية الجيزة .

يمرض « شوقى » ويلزم سريره ، فإذا برسله تفد إلى دار صهره أمير الإحسان المرحوم حسين باشا شاهين : بأن يكلف المرحوم سيدنا الشيخ حسن سرحان كبير فقهاء الدائرة وأحد مؤذنى مسجد السلطان الحنفى بقراءة الفاتحة ويس لله تعالى بمقام السلطان توسلا بالعزيز الرحيم أن يعفو عن « شوقى » .

وكنت أحسب فى أول الأمر ، أن هذا الطلب موجه من حرمه المصون إلى دائرة أبيها رحمه الله ، لأنها معروفة بيننا جميعاً نحن « أهل الحنفى » بسلامة الإيمان وحسن العقيدة ، والاجلال المحض للسلطان الحنفى ، ولكن المرحوم حسين باشا شاهين لقى ربه راضياً مرضياً ، وسيدنا الشيخ حسن سرحان كبير فقهاء دائرته لحق بربه على أثره . فلم أعد أسمع ذلك النداء الحار ينبعث من أعماق نفس ذلك الشيخ الجليل حسن سرحان : (بالفاتحة إن ربنا يشفى شوقى باشا ويأخذ بيده و بيد الست بتاعته ويحفظ أنجاله وعائلته) ؛ وظننت أن صفحات ذلك النداء انطوت ، وأن معين صدقة « شوقى » على فقراء الحنفى نضب ، وأن ذلك كله كان من أجل خاطر المرحوم حسين باشا شاهين الذى فقده خط الحنفى بأسره ، لأنه كان الوالد البار بالجميع ؛ وسكت وسكتنا .

وأخيراً مرض « شوقى » فإذا بى أستدعى إلى قصره بالجيزه (تليفونياً) ، وإذا به يستقبلنى فى غرفة نومه وهو على سرير مرضه ، وإذا به يطلب إلى — فى ضراعة المؤمن الموقن — أن (أقرأ له يس ، وأن أطلب له الفاتحة فى مقام السلطان الحنفى) .

وظل هذا أسلوبه معى : يمرض فيطلبنى كما يطلب الطبيب ، وأكلف أحد أتقياء الفقهاء أن يقرأ يس لله تعالى كما أراد : ثم أطلب له الفاتحة فى مجلس الذكر ، ويشفى فتنطوى الصفحة مؤقتاً ، وهكذا دواليك حتى لقى ربه مغفوراً له .

وبعد، فإن الأستاذ أحمد عبد الوهاب سكرتيره الخاص ، والسيد ابراهيم بن عمر السقاف كبير أعيان سنغافوره ، يذكران حديثاً قصيراً لى مع أمير الشعراء - أنزله الله منازل رضوانه - وكان ذلك قبيل وفاته بثلاثة أيام ، حين وفد على نزل « الكونتننتال » لزيارة الصديق السيد ابراهيم السقاف ... لقد بشرت « شوقى » يومها بغفران الله ، وأنه من المقبولين ، وذلك تفسيراً لرؤيا رآها رجل من الصالحين مؤداها أنه رأى الحسنين - عليهما السلام - يستقبلان « شوقى » ثم يهمان به إلى جدهما عليه الصلاة والسلام ، فيستدعى المصطفى حسان بن ثابت رضى الله عنه ، ويقول له : « إن أحمد نافح كما نافحت ، ووفى كما وفيت ، فخذه إلى جوارك فى الجنة » ؛ قصصت هذه الرؤيا كما أبلغنيها من رآها ، وهو رجل معروف بيننا بالصلاح والصدق ؛ فماذا رأينا حينذاك ؟ رأينا الدمعة على محاجر « شوقى » وهو يهمهم (عليه الصلاة والسلام ... عليه الصلاة والسلام) ؛ فلم يستطع أحدنا حبس دمعه ، وانصرف وانصرفنا ، ثم كان أن لقى ربه فى ثالث يوم بعد هذه البشرى .

ففى وديعة الله وكنف رسوله الصادق الأمين ، ورفقة الأئمة من آل محمد « وحسن أولئك رفيقا » .

حافظ

أما «حافظ»، ذلك الشاعر الحكيم ، فارس الخطوب، ومقارع الهيجاء، وموقظ موات الهمم، فترجع معرفتى به إلى عهد لا أظنه تجاوز العشرين عاماً ، وكانت تطربنى منه النكتة الحية تكاد تجرى فى حديثه مجرى الشاهد ، هى نكتة فى الصميم ولكنها صنعة اللبق الحكيم.

كنت أجلس إلى محضره العذب الفينة بعد الفينة ، فاذا بى أمام البحر الزاخر بجميع ما نفس من مفاخر الأوائل ومآثر الأواخر ، فمن شاهد فى صلب اللغة، إلى معنى طريف فى بيت قديم ، إلى نسق بجمل فى شاهد حديث ، إلى تاريخ فرد ، فتاريخ أسرة، فخلاصة أخبار جيل ، هذا تجده فى حديث «حافظ» إليك، وإنك لموف نفسك حظها مما تألف، ثم منصرف عن مجلسه، وقد سمعت فطربت ، ودرست فوعيت ، وأشبعت حواسك من أنس المحضر وسلامة المخبر.

أذكر أنى سعدت برفقته إلى إحدى القرى لزيارة صديق كريم ؛ وكنا معاً فى صحبة الصديق العزيز «السيد محمد عبد الهادى الجندى بك» رئيس محكمة الاستئناف بأسيوط اليوم، وصدقة كان «حافظ» سليما معافى لا يشكو مرضاً يومها، وكثيرة كانت أمراض حافظ! وكثيراً كان حرصه على التزام وسائل الصحة والراحة معاً ؛ ولكنه نشط يومها، فطلب إلينا السير على الأقدام فى المزارع ، وأنهكنا السير فانتحينا منعرجاً تفيأنا ظلال ما قام عليه من شجر ظليل، وهنا بدرنى «حافظ» بسؤاله — والسيد عبد الهادى بك الجندى يسمع — (يا تمتاز أنى اسيبك دلوقت من المشيخه وغير المشيخه ، سمعنا أحسن أبيات تحفظها فى التصوف، على شرط ما تكونش من شعر ابن الفارض لأنى حافظه كله) ، وهنا اطمأن خاطرى مادام «حافظ» يحفظ شعر ابن الفارض ، فهو بلا شك مأخوذ ببهائه وروائه ، فأنشدته:

لمعت نارهم وقد عسعس الليل	ومل الحادى وحار الدليلُ
فتأملتها وفكرى من البين	عليل ولحظ عينى كليل
وفؤادى ذاك الفؤاد المعنى	وغرامى ذاك الغرام الدخيل
ثم قابلتها وقلت لصحبى	هذه النار نار ليلى فميلوا
فرموا نحوها لحاظاً صحيحات	فعادت خواسئاً وهى حول
ثم مالوا إلى السلام وقالوا	خلبٌ ما رأيت أم تخييل ؟
فتجنبتهم وملت إليها	والهوى مركبى وشوقى الزميل
ومعى صاحب أتى يقتفى الآ	ثار والحب شأنه التطفيل
وهى تبدو ونحن ندنو إلى أن	حجزت دونها طلول محول

فدنونا من الطلول فخالت زفرات من دونها وعويل
قلت: من بالديار؟ قالت: جريح وأسير مكبل وقتيل

وهنا قاطعني وقال: (تصوف إيه دا ياولاد ال... واتو كنتو في القصر العيني ؟)، وضحك وضحكت، ولكن الشك أخذ يدب إلى نفسي في استساغة «حافظ» لأدب المتصوفة، وأمسكت عن القول، فألح، فواصلت إنشادي:

ماالذي جئت تبتغي؟ قلت: ضيف جاء يبغي القرى فأين النزول؟

وهنا قال رحمه الله (آمنت بالله، دا تصوف ابن تصوف، هو فيه حد في الدنيا بيجي لي عندهم جريح وأسير وقتيل ويقول أنا ضيف عايز أتعشى وأنام إلا شيخ طريقه؟ آمنت بالله آمنت بالله قل ياعم قل).

وهنا رفضت أن أعود إلى الإنشاد رفضاً باتاً، ولكن السيد عبد الهادي بك الجندي (حلفني بالنبي) أن أقول، فاشترطت الانتظار حتى أتم إنشادي، ثم ليعلق بعد ذلك، فتظاهر «حافظ» بالقبول وواصلت إنشادي فقلت:

فأشارت بالرحب دونك فاعقرها فما عندنا لضيف رحيل

فقال «حافظ»: مسكينة، وهممت أن ألزم الصمت، ولكن سكوته أطلق لساني فقلت:

من أتانا ألقى عصا السير عنه قلت: من لي بذا وكيف السبيل؟
فحططنا إلى منازل قوم صرعتهم قبل المذاق الشمول

فقال «حافظ»: مساكين (بيسكروا شفهي)، وسرى عني فلم أعد أبالي بمقاطعته، بل صرت أتطلبها اصطياداً للنكتة الطريفة فقلت:

درس الوجد منهم كل رسم فهو رسم والقوم فيه حلول
منهم من عفا ولم يبق للشكوى ولا للدموع فيه مقيل

فقال: (دول المصريين، قول ياعم قول) فقلت:

ليس إلا الأنفاس تخبر عنه وهو عنها مبرأ معزول
ومن القوم من يشير إلى الوجد تبقّى عليه منه القليل

فقال: (دول الانجليز)، قلت:

قلت: أهل الهوى سلام عليكم لي فؤاد عنكم بكم مشغول

فقال: (دخلنا في الجد)، وهنا قطعت باستساغته شعر الصوفية ثم قلت:

لم يزل حاضراً من الشوق يحدو بي إليكم والحادثات تحول
جئت كي أصطلي فهل لي إلى نار ذراكم من الغداة سبيل؟

فأجابت: حوادث الحال عنهم … كل حد من دونها مفلول
لا تروقنك الرياض الأنيقا … ت فمن دونها ربى ووحول
كم أتاها قوم على غرة منها … وراموا قرى فعز الوصول
وقفوا شاخصين حتى إذا ما … لاح للوصل غرة وحجول
وبدت راية الوفا بيد الوجد … ونادى أهل الحقائق: جولوا
أين من كان يدعينا فهذا اليوم … فيه سيف الدعاوى يصول
حملوا حملة الفحول ولا … يصرع يوم اللقاء إلا الفحول
بذلوا أنفساً سخت حين شحت … بوصال واستصغر المبذول
ثم غابوا من بعد ما اقتحموها … بين أمواجها وجاءت سيول
قذفتهم إلى الرسوم وكل … دمه فى طلولها مطلول
منتهى الحظ ماتزود منه الل … حظ والمدركون منه قليل
نارنا هذه تضيء لمن يسرى … بليل لكنها لا تنيل
جاءها من عرفت يبغى اقتباساً … وله البسط والمنى والسول
فتعالت عن المنال وعزت … عن دنو إليه وهو رسول
فوقفنا كما عرفت حيارى … كل عزم من دونها محلول
ندفع الوقت بالرجاء وناهـ … يك بقلب غذاؤه التعليل
كلما ذاق كأس يأس مرير … جاء كأس من الرجا معسول
وإذا سولت لى النفس أمراً … حيد عنه وقيل صبر جميل
هذه حالنا وما وصل العلم … إليه وكل حال تحول

***

وتغير وجه «حافظ» وصرخ: (لا إله إلا الله)، قلت مابك؟ قال لقد ملكت على هذه الأبيات مشارب الحس، لمن هى؟ قلت لشيخ الصوفية عبدالله بن القاسم الشهرزورى، قال: إنكم معاشر صوفية هذه الأيام لمجرمون، تحفظون هذا ولا تنشرونه على الناس؟! إن لكم لأدباً، وإن فيكم لذوقاً؛ ولو كنت مثلك شيخ سجاده، لعلمت الناس أدب القوم ولعرفتهم ذوقهم؛ قلت: لقد جرفنا سيل أدبكم، ومانحن فى هذه الأعصار العاصفة؟ قال: والله إن العارف بمعرفته ليملك القلوب ويحيى النفوس، ولكن أين أنتم من العارفين؟ إنكم غير أولئك.

فقلت: صدقت، ثم قمنا وقد اختلف الموقف، وأصبح «حافظ» شيخ طريقة وعدت أنا تلميذاً!

محمد الغنيمى التفتازانى